### المرأة:

إن السمات الجمالية التي ظهرت بها المرأة في المعلقة مكنته من تخطي ذلك الجسر المعقود بين الشعور بالتعاسة المتمثل بالإحساس بالعدم عند وقوفه على الأطلال، والإحساس بالجمال والحياة عندما انتقل إلى وصف المرأة ومظاهر النعمة التي تحيا فيها ومن ثم مغامراته معها وتحديد علاقته بها. وهكذا استطاع الشاعر أن يتخطى إحساسه بالفناء منطلقاً إلى الحياة يصف مظاهرها الطبيعية المختلفة، فالمرأة عنده رمز للسعادة والاستقرار وهي مظهر ممتلئ بالحياة كالمظاهر الطبيعية الأخرى. لذا تناول الشاعر مظاهرها الخارجية الجمالية جزءاً جزءاً كما تناول مظاهر الطبيعة المختلفة من ليل ونجوم ومطر وسيل ونباتات وحيوانات. فهو كما يندمج في الحياة الجمالية للطبيعة يندمج اندماجاً كاملاً في الحياة (المرأة) التي تبعث فيه الشعور نفسه بالجمال والحب. لذا بدت النساء الأربع اللاتي ذكرهن في المعلقة وغيرهن ممن لا أسماء لهن خاليات من الملامح الفردية وكأنهن امرأة واحدة، تلك المرأة التي يجد عندها الحنان والاستقرار والحب ومن ثم الخلود لمواجهة الوحشة التي عاناها من ترحله المتمثل بالطلل. وهكذا تنهال الذكريات الحلوة الجميلة انتصاراً للحياة والجمال والمتعة في نفس امرئ القيس وهو يروي لنا حادثة يوم جلجل:

ويوم عقرت للعذارى مطيتي

فيا عجبا من كورها المتحمل

يظل العذارى يرتمين بلحمها

وشحم كهداب الدمقس المفتل

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
|  |  |  |
|  |  |  |

إن البهجة والحركة المتمثلة في هذين البيتين تمثلان لنا انطلاق الشاعر نحو الحياة الجميلة المليئة بالمتعة والحياة بين فتيات سعيدات بالإكرام الذي حباهن به الشاعر بعد أن عقر لهن مطيته. وسعادتهن المتمثلة بالحركة البهيجة التي رسمها لهن وهن يمرحن في ترامي لحم الناقة وشحمها فيما بينهن، لقد عبر الشاعر الجسر من جانب الموت المتمثل بالقلق الذي أوحاه الطلل المليء بالشجن إلى نفسه في ذكريات حية سعيدة، وهذا هو الفرق بين الغزل والنسيب فإذا كان الأول شعوراً بالسعادة والبهجة فالثاني يخلط البهجة بالحزن والألم إنه يجمع بين أسباب الحياة والموت وهذا يذكرنا بمبدأ التزاوج بين المتعة والألم… وقد جمع الشاعر الجاهلي بين هذين الشعورين في إطار واحد هو ما نسميه النسيب أي الحب المهدد دائماً برحيل المحبوبة وكذلك الحياة المهددة بالخراب متمثلة في الوقوف على الأطلال المقفرة) . إن هذا الإحساس القلق الذي تلمسناه في نسيب امرئ القيس رغم أنه ظاهرة فردية ناتجة عن صراع نفسي يعتلج في نفس الشاعر نتيجة لقلقه تجاه المجهول الممثل لخطر الرحيل الدنيوي والكوني إلا أن مثل هذا النسيب نجده عند غيره من الشعراء الجاهليين لدى وقوفهم على الأطلال، فهي وإن بدت تجربة فردية لأول وهلة إلا أنها مشاعر مشتركة تمثل موقفاً إنسانياً مشتركاً.

وهكذا جاء انتقال الشاعر من النسيب إلى الغزل طبيعياً وهو ما أسماه الأقدمون حسن التخلص، فقد استطاع الشاعر أن يتغلب على الإحساس بالعدم في نفسه فانطلق إلى الحياة بما فيها من بهجة وسعادة، وقد بدأ غزله بذكر مغامرته مع عنيزة:

|  |
| --- |
| **ويَوْمَ دَخَلْتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْـزَةٍ**  **فَقَالَتْ لَكَ الوَيْلاَتُ إنَّكَ مُرْجِلِي** |
| **تَقُولُ وقَدْ مَالَ الغَبِيْطُ بِنَا مَعـاً**  **عَقَرْتَ بَعِيْرِي يَا امْرأَ القَيْسِ فَانْزِلِ** |
| **فَقُلْتُ لَهَا سِيْرِي وأَرْخِي زِمَامَـهُ**  **ولاَ تُبْعـِدِيْنِي مِنْ جَنَاكِ المُعَلَّـلِ** |

إن عنيزة تمانع بدلال ووعد بالعطاء ويحس امرؤ القيس منها ذلك، وعندما تطلب إليه النزول خوفاً من أن يعقر البعير نتيجة لثقلهما عليه، فهو لا يلتفت إليها ويطلب إليها طلب المتمكن من نفس من يحب بأن ترخي زمام البعير وتدعه يسير كما يلمح لها بأنه يريدها ويبغي جناها الطيب المستملح، وهو لا يقنع بالجلوس إلى جانبها فقط بل هو يسعى إلى رغبات مادية أخرى. لذا فهو ينعطف رأساً إلى ذكر مغامراته الغرامية مع الأخريات وهو يبالغ في القول مبالغة عظيمة (فمثلك حبلى.. إذا ما بكى من خلفها).

لقد خلق لنا الشاعر من خلاله أبياته الغزلية فناً عالياً يدخل ضمن مفهوم الفن للفن .

لقد كان امرؤ القيس في مبالغته في ذكر مغامراته مع النساء يريد أن يعوض النقص الذي ولده عزف النساء عن معاشرته، هو الذي حبته الطبيعة قوة وفحولة ورجولة.

إن المبالغة في مسألة المرأة ما هي إلاّ تعويض عن هذا النقص الكبير الذي يحس به الشاعر فهو يكذب ليغطي هذا النقص أمام الآخرين. فالمرأة تمثل في حياة امرئ القيس الشعور بالجمال والكينونة والوجود ليقابل ما يعتلج في نفسه من خوف من المجهول، إنه في ذكر المرأة يبقي الحياة في أوج قوتها وتجديدها لذاتها كي لا يستطيع الموت أن يقضي عليها قضاء كلياً ولتبقى قادرة على مصارعته، والبقاء الدائم رغم مطاردته لها:

**ويَوْماً عَلَى ظَهْرِ الكَثِيْبِ تَعَـذَّرَتْ**

**عَلَـيَّ وَآلَـتْ حَلْفَةً لم تَحَلَّـلِ**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
|  |  |  |

إن المرأة تمتنع عليه، لقد وعدت ثم أخلفت، إنها مثل الحياة توجدنا ثم تبدأ بقلب ظهر المجن لنا حتى تتخلى عنا تماماً وتدعنا للموت يلتهمنا ويتلهى بنا، إن امتناع المرأة على امرئ القيس كإدبار الحياة عنه فكلاهما يعني الفجيعة والموت. وكأنه المجهول الذي يتربص به الذي يخافه الشاعر كل الخوف , فامرؤ القيس توسل هنا بمبدأ التعميم الذاتي بفعل السويداء والوحشة فبدا له أن المرأة لا تزال تخادعه وتغرر به وأنها لن تخلق في نفسه إلاّ البؤس الدائم، ولعله كان يعاني هنا لحظة من الصدق والصفاء النفسيين فباح بحقيقة واقعه من المرأة محققاً ما تذكره الأصول القديمة عنه من أنه كان مفركاً لا تطيق النساء عشرته .

من كل هذا نستنتج أن ذكره للنساء في معلقته لم يكن بدافع الحب لعنيزة كما ذكرت كتب تاريخ الأدب بل بدافع الصراع الذي نشب في نفسه عند تمثله لحياة الترحال والتنقل تلك الحياة التي كانت سنة الأحوال الاجتماعية والاقتصادية للبيئة الصحراوية. ولم يأت ذكر الغزل في المعلقة إلاّ على سبيل المفاخرة إلى جانب فخره بحصانه وقوته وبراعته في الصيد وكرمه عندما ذبح للعذارى مطيته في يوم دارة جلجل، ولإظهار براعته وقدرته في نظم الشعر ولـه فيه أسلوب خاص جرى عليه غيره من الشعراء فيما بعد ويقوم هذا الأسلوب بذكر مغامرة غرامية ونقل ما يدور فيها بين الشاعر وصاحبته من حوار يبدأ بارتياع الحبيبة من مفاجأة الشاعر لها، وبلوم فيه كثير من الدل. وهذا الأسلوب الذي ابتدعه الشاعر لنفسه , الذي أظهر فيه تعمقاً بمعرفة النساء كثيراً ما يكون مزيجاً من الوصف والقصص والحوار… . ثم توالت في ذهنه الذكريات، ذكريات حية صامدة أمام كل موت، ذكريات حبه لفاطمة، ويبدو امرؤ القيس معها رجلاً آخر، فهو لا يسعى إلاّ إلى رضاها، ويقف منها موقف الند للند، ولا يكذب ولا يغالي في الحديث بل على العكس نجد في قوله رنة حزن وأسى وهو يعجب من صرمها له:

**أفاطِـمَ مَهْلاً بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّـلِ**

**وإِنْ كُنْتِ قَدْ أزْمَعْتِ صَرْمِي فَأَجْمِلِي**

لذا فهو يسائلها مستنكراً إن كانت قد بدت منه إساءة تجاهها:

**وإِنْ تَكُ قَدْ سَـاءَتْكِ مِنِّي خَلِيقَـةٌ**

**فَسُلِّـي ثِيَـابِي مِنْ ثِيَابِكِ تَنْسُـلِ**

وهو يعلم حق العلم أن إساءته إليها شيء مستحيل، ويعلم أنها واثقة من حبه لها فهي تعامله معاملة المرأة المتمكنة من قلب رجلها:

**أغَـرَّكِ مِنِّـي أنَّ حُبَّـكِ قَاتِلِـي**

**وأنَّـكِ مَهْمَا تَأْمُرِي القَلْبَ يَفْعَـلِ**

**وَمَاذرَّفَـتْ عَيْنَاكِ إلاَّ لِتَضْرِبِـي**

**بِسَهْمَيْكِ فِي أعْشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّـلِ**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
|  |  |  |

ولكننا نحس من قول الشاعر أن فاطمة لم تكن تحبه بل هي عازفة عن لقائه صارمة له، ولم يبد منها أية ظاهرة من ظواهر الحب تجاهه، وأنه قد توهم ذلك، لأنه لم يكن قد تعامل مع الحرائر، فلم يعرفهن معرفة أكيدة، لأن تعامله مع المرأة البغي هو التعامل الشائع في شعره بسبب حياته المتنقلة اللاهية.

لقد أراد امرؤ القيس أن يجد الأمان والاستقرار والنماء لدى فاطمة ولكنه لم يحصل على بغيته فأصابه الكمد وانتابته الحسرة، فراح يكذب علينا وعلى نفسه بذكر مغامرة جديدة يظهر فيها افتتان النساء به وتهالكهن عليه ليعوض صد فاطمة وصرمها له.

وقد استخدم امرؤ القيس جميع حواسه في كشف جمال المرأة، كما فعل تماماً في كشف مظاهر الطبيعة بعد ذلك، ويبدو للباحث أن محاسن المرأة قد امتزجت بمحاسن الطبيعة كما امتزجت المرأة بها. أليس جمال المرأة يبعث إحساساً بالنشوة كالإحساس الذي يوحيه جمال الطبيعة؟ إن المرأة والطبيعة شيء واحد في نظر امرئ القيس، ولكن أليس الإنسان جزءاً من الطبيعة؟ وقد تملى الشاعر محاسن المرأة وراح يعطينا الجمال المثالي كما يراه في المرأة وإن توهم أن امرأته , تمتلك جميع تلك المواصفات لإيحاء السعادة في ذاته تعويضاً عن موقفه المفجع مع فاطمة، فهي بالإضافة إلى ضمورها , وامتلائها بحيث لا تبين عظامها وخاصة عند موضع الخلخال من الساق، فهي رشيقة القوام وصدرها أبيض مصقول كالمرآة. وقد شبه بياضها ببيضة النعامة الأولى لأنها تكون خالصة البياض وبالدرة التي لم تثقب:

|  |
| --- |
| **كَبِكْرِ المُقَـانَاةِ البَيَاضَ بِصُفْــرَةٍ** |
| **غَـذَاهَا نَمِيْرُ المَاءِ غَيْرُ المُحَلَّــلِ** |

|  |
| --- |
|  |

ثم مضى في وصف العينين والخدين، فخدها سهل جميل وعيناها كعيني المهاة التي معها ولدها ترعاه

|  |
| --- |
| **تَصُدُّ وتُبْدِي عَنْ أسِيْلٍ وَتَتَّقــِي** |
| **بِـنَاظِرَةٍ مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِـلِ** |

وقد علم الشاعر وعرف الواصف أن الجارية الفائقة الحسن أحسن من الظبية وأحسن من البقرة وأحسن من كل شيء تشبهه ولكنهم إذا أرادوا القول شبهوها بأحسن ما يجدون فيقول بعضهم كأنها القمر وكأنها الشمس… ومن يشك أن عين المرأة الحسناء أحسن من عين البقرة وإن جيدها أحسن من جيد الظبية . وهي طويلة الجيد جميلته كجيد لظبي، تزينه الحلي:

|  |
| --- |
| **وجِـيْدٍ كَجِيْدِ الرِّئْمِ لَيْسَ بِفَاحِـشٍ** |
| **إِذَا هِـيَ نَصَّتْـهُ وَلاَ بِمُعَطَّــلِ** | |

وهي طويلة الشعر فاحمته، ملفوف بشكل جميل جذاب:

|  |
| --- |
| **وفَـرْعٍ يَزِيْنُ المَتْنَ أسْوَدَ فَاحِــمٍ** |
| **أثِيْـثٍ كَقِـنْوِ النَّخْلَةِ المُتَعَثْكِــلِ** |
| **غدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إلَى العُــلاَ** |
| **تَضِلُّ العِقَاصُ فِي مُثَنَّى وَمُرْسَــلِ** |

وهو أجمل ما يكون في تصويره خصلات الشعر بكلمة (مستشزرات) فتداخل الشعر مع بعضه في تسريحته الجميلة لم تستطع غير هذه الكلمة المتداخلة الحروف في آن واحد من إظهار المعنى الذي كان يريد الشاعر توضيحه. ثم يصف خصرها الرشيق وساقها الجميل:

**وكَشْحٍ لَطِيفٍ كَالجَدِيْلِ مُخَصَّــرٍ**

**وسَـاقٍ كَأُنْبُوبِ السَّقِيِّ المُذَلَّــلِ**

وهو في استمتاعه الحسي بجمالها ومحاسنها يتوصل إلى أصابعها اللينة المنعمة التي لم يتلفها العمل ولم يصبها بالخشونة والصلابة:

|  |
| --- |
| **وتَعْطُـو بِرَخْصٍ غَيْرَ شَثْنٍ كَأَنَّــهُ** |
| **َسَارِيْعُ ظَبْيٍ أَوْ مَسَاويْكُ إِسْحِـلِ** |

فهي كاملة الأوصاف والمحاسن، لذا تمتزج الأوصاف الحسية بالأوصاف الشعورية:

|  |
| --- |
| **تُضِـيءُ الظَّلامَ بِالعِشَاءِ كَأَنَّهَــا** |
| **مَنَـارَةُ مُمْسَى رَاهِـبٍ مُتَبَتِّــلِ** |

وهي منعمة مترفة غنية لا تعرف للعمل معنى، حافظت على رونقها وجمالها.

وهو يجد في هذه المرأة ومثيلاتها مبتغاه وأمنه واستقراره بعد سفر وترحال، بل يجد فيها الأمن والطمأنينة والتخلص من الصراع القائم في نفسه بين البقاء والفناء، لذا فهو لن يبتعد عنها ولن يجدي الخصوم في تعذالهم ولومهم شيء فهي كنهه الأخير ومستقره في الحياة والسعادة:

|  |
| --- |
| **إِلَى مِثْلِهَـا يَرْنُو الحَلِيْمُ صَبَابَــةً** |
| **إِذَا مَا اسْبَكَرَّتْ بَيْنَ دِرْعٍ ومِجْـوَلِ** |
| **تَسَلَّتْ عَمَايَاتُ الرِّجَالِ عَنْ الصِّبَـا** |
| **ولَيْـسَ فُؤَادِي عَنْ هَوَاكِ بِمُنْسَـلِ** |
| **ألاَّ رُبَّ خَصْمٍ فِيْكِ أَلْوَى رَدَدْتُـهُ** |
| **نَصِيْـحٍ عَلَى تَعْذَالِهِ غَيْرِ مُؤْتَــلِ** |

وهذا المثل في المرأة هو المثل الذي بقي بعد ذلك في العصور كلها ولا يزال حتى اليوم في منزلته تلك التي كان يحتلها أيام امرئ القيس، لم يغيره مرّ العصور وتقلب الأذواق .

إننا نظلم امرأ القيس إذا قلنا عن وصفه هذا بأنه إمعان في المادية ، إن الرجل يصبو في قوله هذا إلى المرأة المثال، المرأة الحياة كما يراها هو، وهو ما ذكر كل ذلك إلاّ من باب التعويض لعدم حصوله على المرأة التي يشعر معها بالاطمئنان والسعادة والاستقرار، إن تجربة الحب الحقيقية تعاش ولا تكتب فمتى ما فقدناها ثم افتقدناها نسعى إلى تصويرها في نفسنا عندئذ نقولها أو نكتبها بأسلوب فني وننقلها إلى نفوس الآخرين كما نحسها نحن في نفوسنا عن طريق الفن والشعر العالي الأخاذ.